

الاستشراق والمشروع الصهيوني*

(ابراهيم عبد الكريم)

مراجعة كمال البكري

تحت عناوين كثيرة منها: الاستشراق العربي والمشروع الصهيوني - واقع العملية الاستشراقية والبحثية - مؤسسات الأبحاث - المحاور الرئيسة للأعمال الاستشراقية - الصراع وفلسطين والصفة الغربية ومستقبل المنطقة والصراع، يتناول الكتاب موضوع الاستشراق والمشروع الصهيوني، لبحث في فصوله الثمانية: علاقة الاستشراق الأوروبي والأمريكي بهذا المشروع، والمؤسسات والحقول أو المجالات التي يغطيها العمل الاستشراقي الصهيوني وما ينتجه من دراسات وأبحاث متخصصة في تاريخ الحضارة العربية مع التركيز على العرب والإسلام في التاريخ المعاصر. ويرصد الكتاب مستقبل المنطقة والصراع العربي - الصهيوني في المنظور الاستشراقي الصهيوني (...). وإذا كان الاستشراق الأوروبي يمثل الأرضية التي استنبت فيها المشروع الصهيوني، والأفق الذي مثل الحاضنة له، فإن هذا الأخير قد تبلور أكثر من انطلاقه في تأسيس «استشراقه الخاص» من دون الاستغناء عن الخدمات التي لا زالت تقدمها تلك الحاضنة. فلا الاستشراق الأوروبي أنهى مهامه ولا المشروع الصهيوني، في طبيعته، يقبل ذلك. ولأن الاستشراق، كما يقول إدوارد سعيد، هو أسلوب ابتدعه الغرب لإحكام السيطرة والرغبة في استعمار شعوب الشرق وبلدانها باعتبارها مناجم غنية وخزانات تحوي ثروات هائلة لا يحسن

(*) إبراهيم عبد الكريم: الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل، دار الجليل للنشر، دار الجليل، عمّان 1993.

أصحابها استغلالها، فإن الاستشراق المعاصر، وخاصة في صورته الأمريكية، يرتبط بالاستعمار المعاصر من حيث تسلط وهيمنة عن بعد، ولذلك انحصرت وظيفة «الاستشراق الجديد» (الأمريكي) في المهمات الاستخباراتية، مما جعل المؤسسات والمراكز البحثية الاستشراقية تتخلى عن الاستشراق في مناحيه الأكاديمية والمعرفية، لترتبط مباشرة، وفي الغالب، بالأجهزة الاستخباراتية والعسكرياتاريا.

ولقد أفادت السياسات الاستعمارية الأوروبية من دراسات المستشرقين وخبراتهم ووظفتها لخدمة أغراضها التوسعية في الشرق. فكانت معرفتهم بأوضاع الشعوب الحياتية الاقتصادية والثقافية والدينية والتاريخية الحضارية بعامة، الأداة الكافية لرسم الخطط والاستراتيجيات والأساليب التي يجب اتباعها في أحوال الحرب أو السلم. ولقد لعب بعض المستشرقين الكبار دوراً كبيراً في خدمة السياسات الاستعمارية إرشاداً وتوجيهاً. ولعل من أبرزهم، وبحسب روجيه غارودي، المستشرق «سيلفستر دوساسي» الذي مارس، بالإضافة إلى وظيفته كأستاذ للغة العربية في الجامعات الفرنسية، مهام مستشار في وزارة الخارجية، وقد كلف بصياغة النداء الذي تم توجيهه إلى الجيش الفرنسي لاحتلال الجزائر. وكذلك المستشرق «ماكس ميلر» الذي مثل مدرسة في تكوين القيادات الاستعمارية التي احتلت الهند. «ولم تنحصر الفائدة التي قدمها الاستشراق ضمن النطاق الاستعماري العربي المباشر، وإنما شملت هذه الفائدة نطاقاً فرعياً يخص التوجهات اليهودية - الصهيونية». فكانت المشاريع المتعلقة بالبحث عن وطن لليهود، ومنها ما قدمه «ديبرون» في بداية القرن التاسع عشر، إذ جهد لتثبيت فكرة «وجود شعب الله المختار» في فلسطين. وكانت حملة نابوليون على مصر كفيلة بالدعوة إلى «إعادة إنشاء مملكة القدس القديمة». وتتابعت الرحلات والدراسات الاستشراقية لتصب في هذا الاتجاه. وتشكلت الجمعيات منها «جمعية فلسطين» (1801) ثم «الجمعية الجغرافية الملكية» (1830) و«صندوق اكتشاف فلسطين» الذي لعب دوراً بارزاً في توجيه السياسة الاستعمارية البريطانية إلى العمل على البدء بتحويل المشروع الصهيوني إلى واقع متحقق. و«الصندوق» المذكور والموجود حتى

الآن في لندن يعرف بأنه «جمعية لدراسة الآثار والطبوغرافيا والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية والعادات والتقاليد في البلاد المقدسة دراسة دقيقة ومنظمة لتوضيح التوراة». وهو برعاية الملكة إليزابيث الثانية.

على أن الخصوصية، التي تدمغ عمل المستشرقين اليهود وتميزهم، من ثمة، عن المستشرقين الأوروبيين الذين تجمعهم بهم طبيعة وغايات العمل الاستشراقي عامة، تتعلق بالجانب العقدي. ذلك أن اليهود من المستشرقين يعملون انطلاقاً من وعيهم بضرورة الكشف عن علاقة لليهود بفلسطين وإثبات جذور تاريخية وحضارية لهم في المنطقة تجد في التوراة مستنداً وأساسها الذي وُجد في القدس، قبل الحضارة العربية الإسلامية. ومن هنا كان لا بدّ من العمل من أجل توكيد هذه المزاعم بما يدعمها فكان اهتمامهم يتركز على ما «يخص دينهم من تاريخ المنطقة العربية وحضارتها. مما يعني أن انتماء المستشرقين اليهود إلى اليهودية، يجد تعبيراته الثقافية عندهم في هيئة اهتمام زائد بالورقة اليهودية في الشجرة الثقافية العربية - الإسلامية» ومن أشهر المستشرقين اليهود في القرنين التاسع عشر والعشرين، الذين كرسوا حياتهم في خدمة المشروع الصهيوني، هم سولومون مونك (فرنسي)، أرمنيوس فامبري (هنغاري)، أجنسس غولدتسيهر^(*) (مجري) ريتشارد غوتهيل (إنجليزي)، جوزيف هوروفيتس ودافيد بانت (ألمانيان)، وغيرهم.

لقد خدم ذلك الاستشراق التقليدي الاستعماري في مراحلهِ التقليدية ليتحول إلى «استشراق جديد» مع تطور أحوال الدول وتغير الاستراتيجيات على وقع حركة الاستعمار الجديد في مرحلة سيادة الإمبريالية. إذ تقتضي هذه المرحلة تطوير أساليب التغلغل في المنطقة بما يؤمن مكاسب أكبر وفي وقت أقصر وبكلمة أقل وتلك استراتيجية تفرضها النزعات البراغماتية التي تحكم علاقات الغرب وأمريكا، على وجه الخصوص، ببقية بلدان العالم. وقد شرع ذلك لتحول سريع ودقيق في وجهة العمل الاستشراقي وتقليصه على مستوى المهام إلى حدود العمل الاستخباراتي المباشر في أغلب الأحيان. وقد

(*) ما كان غولدتسيهر صهيونياً (المحرر).

استخدم ولا يزال العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجية والسيكولوجية والاقتصادية لتزويد الدوائر الاستخباراتية الأمريكية خاصة، بالدراسات والتقارير التي توكل مهمة إنجازها إلى المراكز البحثية والاستراتيجية المتخصصة في الشرق الأوسط والمنطقة العربية.

يرتبط الاستشراق الصهيوني، وظيفياً، بالأجهزة السياسية والعسكرية الصهيونية إذ توظف المناحي المعرفية والأكاديمية في خدمة الدولة الصهيونية ومشروعها التوسعي على الصُّعد كافة، وعلى المستويات الداخلية والخارجية الإقليمية والدولية. وتتكامل المؤسسات والمراكز البحثية الاستشراقية مع المؤسسات العسكرية على النحو الذي فيه «تتحرك الأنشطة البحثية بين الوسط الأكاديمي والجيش في الاتجاهين، إذ هناك إسهامات لأكاديميين داخل الجيش وإسهامات بالمقابل لشخصيات عسكرية في الدوائر البحثية، ضمن شتى المواضيع المدروسة، ومنها بشكل رئيس شؤون الاستشراق». وينقسم المستشرقون العاملون إلى فئات ثلاث: بعضهم من اليهود الذين خرجوا من الدول العربية، وبعضهم ممن ولدوا في فلسطين إبان الانتداب، وبعضهم الآخر من المثقفين الذين تخصصوا في الثقافة العربية الإسلامية في الأطر الأكاديمية والجامعية. وقد تنوعت أبحاثهم لتشمل الثقافة العربية وتراثها من لغة وتاريخ وأدب وسياسة ومجتمع... جامعة تفاصيل التاريخ العربي القديم والحديث. أما في التاريخ المعاصر، فإن الدراسات الاستشراقية المتعلقة بالصراع خلال الربع الأخير من القرن، والمتعلقة باستشراف المستقبل انطلاقاً من استراتيجيات تحدّد العلاقة بين الصهاينة والعرب، فهي تبحث في الصراع وشروط السلام من منظور صهيوني، وهو السلام الذي يفرض بتفوق عسكري يضمن استمرارته تفوق علمي وتكنولوجي. ويركز الصهاينة على تحقيق هذه الاستمرارية من خلال العمل على أن تصبح الدولة الصهيونية أمريكا مصغرة جديدة في الشرق الأوسط، والسيطرة على السوق الاقتصادي الشرق أوسطي وتحقيق الهيمنة على الشراكة فيه.